احـــــراق مـكـتـبـــات بغـــداد

لمـــاذا يـكـــرهـــونـنـــا؟

عبد الخالق كيطان

منذ أعوام طويلة، قبل زلزال التاسع من نيسان أيضاً، كنت أتساءل مع نفسي: لماذا يكرهوننا؟ وهو السؤال ذاته الذي طرحه الأميركيون بعد أحداث ١١ سبتمبر المرعبة.. لا أجد غضاضة من القول أن من ارتكب جريمة سبتمبر لا يختلف بشيء أن لم يكن هو نفسه من يرتكب هذه الجرائم المروعة في العراق وآخرها جريمة شارع المتنبي.. وأعود للسؤال : لماذا يكرهوننا؟ لا أريد أن أقع في فخ التحليلات الطنانة: عراقة البلد، آثاره، تاريخه، ثرواته، موقعه... ألخ.. عندي أن ذلك كله ليس مهماً، وأمامنا العديد من الأمثلة على شعوبٍ تقدمت دون أن تملك من هذا وذاك شيئاً... فيما نحن نتراجع للوراء..

هل استهداف شارع المتنبي صدفة؟ أم لكونه مجرد هدف سهل(بلغة المحللين!!!)، أم لأنه مكان نموذجي لتجمهر البشر ما يسهل من اصطياد أكبر عدد منهم؟ بالطبع نحن لا نستبعد تلك العوامل كلها، ولكن نضيف إليها، بقوة أن الشارع تم استهدافه بتخطيط معلوم ودقيق.. بعبارة أخرى: أنهم يكرهوننا، ولذا يستهدفون رموزنا... لقد استهدفوا مرقدي الأمامين في سامراء... واستهدفوا جسر الأئمة... واستهدفوا ساحة التحرير... والطيران... استهدفوا مدن التعايش الكبرى مثل الموصل والبصرة... استهدفوا مدن هذه الطائفة أو تلك.. استهدفوا الأقليات النادرة: الصابئة، اليزيديه ألخ.. والأمثلة لا حصر لها باستهدافهم رموزنا الوطنية.. فماذا يعني ذلك؟ ألا يعني ذلك بوضوح شديد أنهم يكرهوننا؟؟ أسألوا اي عراقي زار أو استقر في اي من بلدان الجوار الأعجمية أوالعربية وستفهمون كلامي... اسألوا اي عراقي مر ببلاد المغرب العربي الكبير... وستفهمون.. اقرأوا ما يكتبه المثقفون منهم عن مأساتنا وستفهمون.. المئات من هؤلاء الانتحاريين جاؤوا للعراق لشدة الكراهية في قلوبهم وليس طمعاً بالحور الجنان... ولهذا لا بد من فتح مدارس جديدة لبحث مشكلة لماذا يكرهوننا... بالضبط كما فعلت الولايات المتحدة وأسست العديد من المنابر لبحث ذلك.. لا يعقل أن يكون الدم العراقي الذي صبغ ساحاتنا وملاعبنا وشوارعنا مسلياً لهذه الدرجة بالنسبة للأشقاء والجيران، وهكذا فهم يدعمون تدفقه الغزير ولا يأبهون بأجسادنا المحترقة... لا يفسر ذلك أبداً إلا بالكره..

خـــارج المـــدى

تـــأملات الحـــريق

فـــارس خـضـــر

دعونا من "السيارات الملغومة"، من الجثث المكومة على الأرض، من وجوه الأمهات المتفجرة بالعويل، من الدموع والحسرة ولطمات الوجوه، دعونا من دخان الكتب المحترقة في شارع المتنبى، وحصيلة القتلى وخرائط الدم ، دعونا من اختصار المأساة في عبارة دبلوماسية "الملف العراقى" وصنوه "الملف الفلسطينى"، وأيهما تشبعت صفحاته بدم أكثر؟. دعونا من هذه الوجبة الصباحية المعتادة على المائدة العربية العامرة بكل صنوف العذاب، ولنتحدث قليلا عن "الصدور الملغومة بالألم"، وهى تداس يوميا بأحذية جنود غليظة ولا تنفجر!!

فلا يمكن بسهولة أن أنزع من ذاكرتى صور بائع الكتب المفروشة فى شارع المتنبى المنهمك بكليته فى قراءة كتاب..بائع الحلوى الذى رفع قماش عربته الخشبية وأخرج لى كارنية اتحاد الكتاب.. الشعراء الذين يبرزون فجاة من كل ناحية،.. فن التصوير عند العرب بورقه الأصفر ولوحاته النابضة بالحياة.. الكتب المنسوخة فى سنوات الحصار.. عامل الأسانسير الذى أسمعنا شعره، هل يمكن أن أنزع كل هذه الصور الموشومة فى الذاكرة؟ ؟ هل تقدر قوة ما على انتزاع الروح من الحضارات الانسانية الراسخة، وتستبدلها بالموت والخراب .. لقد فعلها الانفتاح الاقتصادى فى شارع الكتب والمكتبات بالقاهرة "شارع الفجالة"، فحوله بقدرة قادر، وبنعومة فائقة ودون احتلال أو عربات ملغومة، إلى شارع السراميك والأدوات الصحية!!.

واليوم تقف العصابات الارهابية والقتلة جنبا إلى جنب القوات الأمريكية المحتلة فيقدمون لها مبررات ممهورة بالدم العراقى لكى تطمس روح بغداد وتمسخها، لتصبح مثل كثير من اخواتها: من عواصم الجهل.

مـــن تـــاريـخ شـــارع المـــتـــنـــبـــي

باسم عبد الحميد حمودي

* بين المتنبي وسوق السراي
* مثقفو الستينيات وزمن الحصار
* بين يوسف حوريش وصيدلية كاكا
* سوق الجمعة والثقافة البغدادية

شارع المتنبي علم شاخص في دنيا الثقافة العراقية وان اغتاله حرقاً من اراد اطفاء نور العلم والمعرفة في هذا المعلم العصري من معالم بغداد والعراق. ولشارع المتنبي تاريخه الخاص كجزء من محلة فراشة العباسية ودرب القز وهذه جولة استذكارية داخل المتنبي ومقهى الشاهبندر عبر التاريخ

عماد عبد السلام : الاتمك خانة

يقول الدكتور عماد عبد السلام رؤوف في كتابه (معالم بغداد في القرون المتاخرة) عن محلاتها واسواقها ووقفياتها فيقف في فصل (محلات بغداد) عند محلة (جديد حسن باشا) فيجد ان شارع السراي هو شارع جديد حسن باشا نفسه أما شارع المتنبي فنجده في فصل (دور الصناعة) تحت اسم (الاتمك خانة) او المطبخ الحكومي حيث يقول المؤلف "ويسمى احياناً بالاكمكخانة أي المخبز.. ونسب زقاق الى هذه المؤسسة فقيل هو زقاق الاكمكخانة، وعد من ازقة محلة جديد حسن باشا وهو شارع المتنبي فيما بعد".

عباس بغدادي: القصة خون والمقامات

ويقول الاستاذ عباس بغدادي في كتابه (بغداد في العشرينات) وفي الفصل الخاص بـ(شارع الرشيد) عند حديثه عن شارع الاكمكخانة (المتنبي) ما نصه "في اخر هذا الشارع ومقابل قهوة الشابندر كان الفرن الكبير لصنع صمون العسكر زمن العثمانيين لذلك سمي جادة الاكمكخانة وعلى رأس هذا الشارع (من جهة الرشيد) مخزن ومحل اسطوانات حوريش وابن عمهم مغنى المقام يوسف حوريش وعلى الركن الاخر خرائب مسقفة".

وعن مقهى الشابندر يقول بغدادي "بالقرب من المحاكم ومقابل القشلة (كانت قهوة الشابندر) وكانت محطا لكل مراجعي المحاكم ودوائر الدولة فهي مزدحمة بالزبائن الذين يشربون النركيلة بانتظار فتح الدوائر الحكومية.. وبجوار قهوة الشابندر دكان لبيع القرطاسية والطوابع المالية يعود لرجل من بيت الاحمدي.. وبجوار المقهى مصوران بالماكنة القديمة لتصوير من يحتاج الى صور في مراجعته للدوائر وعلى الحائط في محل المصور قطعة من القماش الاسود فيها مختلف التصاوير.. وفي المساء كانت قهوة الشابندر محلا لانتظار (فتح) المايخانة المجاورة للمقهى التي تفتح بعد اذان المغرب او بانتظار القصخون او قارئ المقام العراقي وجوقة الموسيقى في بعض ايام السنة".

هاشم الرجب : اخر مقهى للمقام

ويقول الحاج هاشم محمد الرجب (وهو شقيق الكتبي المرحوم قاسم محمد الرجب مؤسس مكتبة المثنى) في كتابه (من تراث الموسيقى والغناء العراقي) في الفصل الذي كان عنوانه "هكذا رأيت مقاهي بغداد في القرن العشرين" عن مقهى الشابندر "كان يقرأ فيها المقام رشيد القندرجي ويوسف حوريش وهي اخر مقهى قرئ فيها المقام الى نهاية الثلاثينيات وبالاخير (كذا) اقتصر (ت) قراءة المقام فيها خلال شهر رمضان فقط وانا رأيت ذلك وهي ما زالت قائمة الى هذا اليوم بالاسم نفسه وصاحبها محمد الخشالي من المحبين للمقام العراقي".

سوق السراي والمتنبي

لم يكن شارع المتنبي مختصاً بالكتب والمكتبات الا من المكتبة العصرية التي كان صاحبها محمود حلمي قد اسسها في نهاية العقد الثالث واستورد الكتب من مصر وبلاد الشام وطبع اولى اعمال القاص الرائد محمود احمد السيد ووزع دواوين الرصافي والشبيبي محمد رضا وكان وكيلا لدار المعارف بمصر، ثم انتقلت ملكية المكتبة الى السيد محمد صادق القاموسي بعد وفاة حلمي.

وكانت معظم المكتبات الرئيسية بما فيها مكتبة المثنى لصاحبها قاسم محمد الرجب والمكتبة العربية لصاحبها الحاج نعمان الاعظمي ومكتبة الفلفلي ومكتبة ابراهيم السدايري ومكتبة المعارف لصاحبها محمد جواد حيدر ومكتبة السلام لمحمود قالبجي وغيرها من المكتبات موجودة ومتراصة في سوق السراي، ثم اسس الاخوان عبد الكريم وعبد الحميد زاهد مكتبتهما واعمالهما في القرطاسية في بداية شارع المتنبي قريباً من شارع الرشيد وعلى مقربة من صيدلية كاكا الشهيرة انذاك.

التحول الكبير

وكان التحول الكبير في هذا الشارع الذي كان شارعا يضم بعض المطاعم والمخازن والمطابع عندما انتقلت مكتبة المثنى عام ١٩٥٠ ثم توالت انتقالات المكتبات الاخرى مثل مكتبة المعارف والمكتبة الحيدرية فيما اسس الشيخ علي الخاقاني مكتبة (البيان) فيها واسس عبد الرحمن حياوي (مكتبة النهضة) وظهرت مكتبات جديدة ومتخصصة بالعلوم وبالتراث.

ازدادت اهمية شارع المتنبي الثقافية تدريجياً فيما ضعف شأن سوق السراي الذي تحول تدريجياً الى دكاكين لبيع المواد القرطاسية والكتب المدرسية القديمة وانتشرت فيه (بسطيات) المجلات القديمة.

ووجد مثقفو الستينيات وما بعدها في المتنبي رئة ثقافية تنتشر فيها المكتبات بكل اشكالها العلمية والدينية والتراثية ودخلت سوق الكتب الممتع الثري هذا وجوه جديدة تولت عملية شراء المكتبات الشخصية للادباء والفنانين واساتذة الادب واساتذة الجامعات الذين اذاهم الحصار الذي فرض على العراق في التسعينيات اثر احتلال العراق الكويت ووقوف المجتمع الدولي باسره ضد هذا العدوان الذي لم يكن العراقيون يفكرون به او يتوقعون حدوثه لولا النزعة الدكتاتورية وحب الاثرة والعدوان التي اتصف بها رأس النظام السابق المهم ان شارع المتنبي صار معلماً ثقافياً عربياً يزوره كل مثقف يصل بغداد ويكتنز من خبرتها ومخطوطاتها وكنوز المعرفة فيها.

سوق الجمعة والثقافة البغدادية

وقد شكل سوق الجمعة في المتنبي ظاهرة حية في الحياة الثقافية البغدادية فقد كان المشتغلون بالادب والفن والصحافة يجتمعون في مقاهيهم الاثيرة كل جمعة صباحاً، حسن العجمي والبرلمان (التي زالت) بعد ان بقيت طويلاً تحت اسم مقهى الرشيد والمقاهي القريبة ثم يتحولون الى شارع المتنبي، يتجولون بين مكتباته ويقفون عند مكتبة الشطري حيث يبدأ مزاد الكتب النازلة حديثاً للسوق حيث توزع مكتبة عالم او اديب الى اشلاء بعد ان تباع بالمزاد في وقت يتهامس فيه اديب مع كتبي محاولاً الحصول على كتاب ممنوع ومستنسخ.

حكاية الاستنساخ

وجد الباعة الشباب والشيوخ في حكاية الاستنساخ للكتب الممنوعة زمن النظام السابق سبيلاً محترماً للفائدة المادية –رغم خطورة الممارسة- ولايصال الكتب الجديدة التي لم تدخل العراق الى المثقفين باسعار ميسرة وكانت الكتب الدينية والسياسية المعارضة اولى الكتب التي تجد اقبالاً كبيراً عليها اضافة الى مستنسخات الموسوعات وكتب البرامج والكتب العلمية.

سيعود مثل العنقاء

وظل سوق المتنبي الثقافي حتى احراقه ضمن مخطط اجرامي واضح المعالم، رئة يتنفس منها مثقفو العراق هواء الحرية والمعرفة وسيعود المتنبي الشارع كالعنقاء التي تولد من وسط حريقها رغم حقد المتخلفين احفاد هولاكو.

تعـــال ..... فقـــد احـــرقـــوا المـتـنـبـي

كـــريم شغـيـــدل

تعال ننزف آخر الكلمات
وندفن آخر الموتى
تعال نلم أطياف المراثي المبعثرة
تعال نشوه المشهد
ونرسم على الرماد
حمامة من دموع
تعال يا ابن دجلة
يا وليد الأسى والضياع
هذي بغدادك احترقت
وطافت على صفحة النهر
جثث الحروف

تعال نعتلي المنصة
ونتشد للهشيم ....
ما لدموعك اسودت
ما لصمتك نازف
ما لحنجرتك انثلمت
واندبحت على قميصك الكلمات
ألست بشاعر وهذه بغدادك احترقت
تعال فقد أحرقوا المتنبي
ألست نبياً
ألست عرافاً
ماكراً
ساحراً
بماذا تكهنت إذن
ساعة أحرقوا كتب الأنبياء
تعال .....

فقد تفجرت على الرصيف
كلمات الله
وتمزقت حروف الوحي

وأنفاس الملائكة
تعال نتمرى
في ما تناثر من دم بين الزجاج
فقد خربوا النهر
وأحرقوا الساقية
موعدنا هناك
نموت على المنصة
واحداً
واحدا
تعال نخط على النعوش
آخر القصائد
تعال واختر نعشك
من بين الهشيم
تعال نشطف
ما تناثر
وما تمزق
وما تطاير
وما تقطع
وما احترق
لعل مرثية أبدية
تنشب أظفارها بلحم الخراب

..... قد أحرقوا المطر
فلا عيناك غابتا نخيل
ولا أضواء لاسحر
قد أحرقوا قميص عائشة
ومرغوا شيرازي في دم القمر....

تعال نرثي الكتاب
تعال نرثي الشارع والمقهى
و نؤبن خطوات من مر عابراً
أو خطوات من بينه وبين المتنبي
حبل أسى وضياع .....
تعال ننشد شعراً
عند بوابة السراي أو الشابندر
تعال نتألق بين الجموع
كصبيان نزقين ،
نتبادل الرثاء
فهذا خراب جديد نلطم فيه ،
نتلمس طريقاً بين حروف نازفة
وقراطيس تنوح
ونعتلي المنصة
واحداً
واحدا
تعال نبعثر أصابع الميتين
ونقف على أطلال مقهانا القديم